عن الفرنسية
بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

كان ذلك فى أوان الصيد فى قصر باتيل، والخريف مطير حزين، والأوراق المنتثرة ذابلة مخضرة لا يسمع لها تقصف تحت الأقدام، بل تعطن فى السكك ومدارج العجلات تحت شآبيب الديم المطالة

وكانت الغابة وهى جرداء إلا قليلا تشبه الحمام من الرطوبة. فاذا أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالى بصفقه وابل المطر تناولتك رائحة عفنة وهبوة ماء من العشب المخضل والأرض المبتلة

والصيادون حناة الظهور يدبون تحت هذا الفيض الهتون، والكلاب محزونة ذيالها مرسل، وشعرها ملتصق بآباطها، والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة لاصقة مشربة بالبلل، وهم كل مساء يؤوبون من الصيد أنضاء جسم وعقل أجمعين

وفى البهو الكبير بعد العشاء يجتمعون إلى لعبة الورق متقارعين، من غير انبساط ولا لذة. والريح فى الخارج هبات مدوية تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة، وتبتدر دوارات الهواء فوق الأبراج فاذا هى من دوران كالخذروف المدوم

فأرادوا أن يسمروا بالحكايات كما تروى فى الكتب، ولكنهم لم يفتح على واحد منهم بابتداع حكاية مسلية.

ومضى الصيادون يقصون ما وقع لهم أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم الأرانب، وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهرزاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة، وكادوا يكفون عن الأحاديث.

وكانت إحدى الغانيات تعبث خالية البال بيد عمتها العجوز، وهى عانس لم تتزوج، فلحظت خاتما صغيرا من شعرات شقراء كثيرا ما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه

فسألتها وهى تديره فى أصبعها بلطف: «ألا قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم؟ لكأنه شعر غلام يافع...» فاحمار وجه العانس ثم اصفار، وأجابت بصوت مهدج: «إن الأمر محزن جداً، محزن جداً، حتى لست أحب الكلام عنه. وكل ما فى حياتى من الشقاء فهذا مصدره. لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئذ، وما زالت تلوعنى الذكرى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى

فتلهفوا إلى سماع الخبر ، وأبت العمة ذلك عليهم ، فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الأمر :

« كثيراً ما سمعتمونى أتحدث عن أسرة سانتير ، وقد انقرضت اليوم جميعاً ، ولقد عرفت الثلاثة الرجال الأخر من هذا البيت ، والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات الأخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلى . لقد يبدو لكم الخبر غريباً ، أليس كذلك ؟

آه . لقد كانوا معشراً عجيباً من المجانين ، إن شئتم هذه التسمية ، ولكن مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعاً — أباً عن جد — أصحاب عواطف عارمة جامحة ، تدفعهم من كيانهم كله دوافع قوية إلى أبعد السبحات وإلى التفانى وفرط التحمس ، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم ؛ وهذا منهم بمقام فرط التدين فى بعض النفوس . وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين رواد المجالس أزيار النساء . وكان يتردد فى أوساطهم وبين ذوى رحمهم قولهم : « عاشق عشق بنى سانتير » ، وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم . فكلهم شعره ذو خصل منسدلة على الجبين ولحيته جعدة وعيناه واسعتان ينفذ شعاعهما فى نفسك فيبلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً

وكان جد الغلام — الذى رأيتم فى أصبى تذكاره الوحيد — له مغامرات عدة ومبارزات وسبى واستباحة للحريم . وقد هام بعدها وهو فى نحو الخامسة والستين بأبنة مؤاجر ضياعه . وإنى لأذكرها . وكانت شقراء شاحبة اللون ، حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدة وفى صوتها لين وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية فى الحلاوة كأنها نظرة العذراء فى صور الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده ، وسرعان ما أصبح متيما بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان فى القصر تجدان الأمر طبيعياً أطول ما قر الحب فى تقاليد الأسرة . فالموضوع ما دام محوره العشق فليس فيه ما تنكرانه وتتعجبان منه . وإذا دار الحديث أمامهما عن هوى قامت الموانع دون قضاء لباناته ، أو عاشقين فسد ما بينهما أو وقائع الانتقام من الخيانة أو نقض العهد ، قالتا معاً فى لهجة شجية : « لله الله : أو (لها الله :) لشد ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر هذا المبلغ » ثم لم تزيدا على ذلك . وإنهما لترقان لمآسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابها ولو أجرموا

إلا أنه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب فى عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جرادبل فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانتير هادئاً كأن لم يحدث شىء . وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقاً بعرقد الكلاب وهى حوله

وقد مات ابنه مثل هذه الميتة فى فندق بباريس فى أثناء رحلته سنة ١٨٤١ ، على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك ولداً فى الثانية عشرة وأرملة هى أخت أمى . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا فى بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعاً

ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانتير مدهشاً باكر النضوج قبل الأوان . وإنه ليخيل الى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس جائشة قد اجتمعت فيه ونزلت به . بهذا العقب الأخير . وكان على الدوام حالماً يتمشى وحيداً ساعات كاملة فى ممشى رحيب بين أشجار الدردار ممتد من القصر الى الغابة . وكنت أرقب من نافذتى هذا الصبى الرقيق الوجدان وهو يسير وقور الخطى ويداه خلف ظهره مطرقاً الى الأرض ، وأحياناً يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان فى سنه

وكثيراً ما كان يدعوني للخروج بعد العشاء في الليالي القمرة قائلاً : « هلمي يا ابنة الخالة نحلم .. » فنمضي سوياً الى الروض . وكان يتوقف فجأة في الفضوات بين تفاريج الشجر حيث تطفو تلك الهبوة البيضاء مثل ندف القطن يبطن بها القمر فجوات الغاب . ويقول لي وهو يشد على يدي : « انظري الى هذا ، انظري الى هذا ! ولكنك لا تفهميني ؛ إني لأحس ذلك . لو إنك تفهميني لكنا سعداء . لابد من الحب لمن شاء المعرفة » . وكنت أضحك وأقبله ، أقبل هذا الصبي الذي يحبني مستهاماً في حبي . وكان أيضاً بعد العشاء كثيراً ما يجلس على ركبتي أمي قائلاً لها : « إيه يا خالة ، قصي علينا شيئاً من قصص الحب » فتحكي له أمي على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية ، والناس يرددون منها الألوف بعد الألوف من صحيحة ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فقد كانوا يستجيشون لها ثم عاكهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعها ؛ وكان في بعض الأحيان يدق بيديه مردداً : « وأنا أيضاً ، واني لأعلم بالحب منهم جميعاً » . ثم جعل يتحبب إليّ متغزلاً في استحياء وحنان عميق كانا مثاراً للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان في كل صباح يقطف لي جنى الزهر ، وفي كل مساء قبل صعودي الى مقصورتي يلثم يدي هامساً : « أنا أهواك ! »

لقد أذنبت ، وركبني أعظم الذنب . ومازلت على هذا نادمة باكية لا يرقأ لي دمع . وإلى في التكفير عن هذا طيلة حياتي ، وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة ، أجل أنا له ، الأرملة . كنت ألهو بهذا الحب الصبياني بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت المرأة الخلوب ذات الدل ، وكأني إلى جنب رجل ألاعبه وأخاتله . لقد فتنت هذا الغلام ودلهته بحبي . وكان الأمر عندي لعباً ومداعبة ، وعند أمي وأمه تسلية وترويحاً . لقد كانت سنه اثنتي عشرة سنة ، فتأملوا : من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الذري ! فكنت أقبله ما شاء ، بل كنت أكتب رسائل العشق له وأقرئها أمي وأمه قبله ؛ وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد احتفظت بها . وكان معتقداً أن صلاتنا الغرامية سراً مكتوماً ، وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلاً والأمر في عرفه الجد كل الجد . وقد غاب عنا أنه من بني سانتيز

ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام . وفي ذات مساء ونحن في الروضة خر جاثياً عند قدمي ولثم حاشية ثوبي في اندفاع المهتاج مردداً : «أنا أهواك ، أهواك ، أنا ميت في هواك . وإذا خنتني في يوم من الأيام ، أسامعة أنت — إذا هجرتني إلى سواي فأني صانع مثلما صنع أبي ...» وأردف في صوت عميق يقشعر له البدن : « أنت عليمة بما صنع ! »

ولما وجمت ولم أحر جواباً نهض وشب على أطراف قدميه ليبلغ إلى أذني — وكنت أفرع منه

طولا -- ودعانى باسمى ، اسمى الأول ، « جنفييف ! » بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتنى منها قشعريرة سرت من فرعى إلى أخمص قدمى

فغمغمت : « لنرجع ، لنرجع إلى الدار » . فلم يبس بكلمة وسار فى إثرى ، فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفنى : « أتعرفين ؟ إذا هجرتنى فأنى قاتل نفسى »

فعلمت هذه المرة أننى تمادبت حيث لا يجب التمادى وتكلفت معه التحفظ . ولما أن كتب ذات يوم يعتب علىّ أجبته : « أنت اليوم أكبر من عبث المزاح وأصغر من جد الحب . وإنى فى الانتظار » . وحسبتنى بهذا قد أبرأت ذمتى

وفى الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية . فلما عاد فى الصيف التالى كنت مخطوبة . فأدرك الأمر فى الحال ، والتزم مدى ثمانية أيام هيئة المفكر الغارق فى التفكير . فأهمنى ذلك وساورنى منه قلق شديد

وفى صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومى فوقعت عيناى على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتها وفتحتها وقرأت فيها : « لقد هجرتنى ، وأنت تعلمين ما قلته لك . لقد قضيت فىّ بالموت . وإنى لأحب ألا يعثر بى أحد غيرك ، فتعالى إلى الروض فى نفس الموضع الذى قلت لك فيه أنى أهواك وتطلعى فى الفضاء »

فكدت أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابى وهرولت على عجل أجرى وأجرى وأكاد أتساقط إعياء إلى المكان المعين . وإذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الأرض فى الوحل ، فقد كانت الليلة مطيرة . ورفعت طرفى فأبصرت شيئاً معلقاً يترجح بين الورق ، وكان يوم ريح ، ريح شديدة

ولا أدرى بعد ذلك ما صنعت . لقد صرخت أول الأمر ولا ريب ، ولعلنى سقطت بعدها مغشياً علىّ ، ثم عدوت هائمة على وجهى إلى القصر . وثبت إلى الرشد فى فراشى وأنى إلى جانبى

تخيل إلى أنى رأيت ما رأيت كله فى هذيان حلم فظيع . فغمغمت : « وهو ، هو ، جونتران ؟ » . فلم يجبنى أحد . إنها الحقيقة

ولم أجرؤ على طلب رؤيته . وطلبت إليهم خصلة طويلة من شعره الأشقر . وهذى ... هى ...

ومدت العانس يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء وأخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيها الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطوبة دون إبداء السبب ... وبقيت ... بقيت طوال العمر ... أرملة ... أرملة هذا الصبى ابن الثلاثة عشر ربيعاً » . ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلاً بدموع الذكرى

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد ، مال صياد غليظ الجسم قد أفسدت عليه الحكاية صفوه إلى أذن جاره هامساً : ألا ترى رقة الوجدان إلى هذا الحد بلاء وشرّ بلاء !

عبد الرحمن صدقى